

سورية وانعدام الوزن

الحياة ٧٢٩ / ٨٨

بقلم: غسان سلامة*

بين استمرار النفوذ السوري،
وإنهياره وسط أملاكه تطورات
وأحداث، يناقشها هذا المقال.

أيضاً وأكثر. فللعراق نفوذ تقليدي في
الساحة العربية، تجدد لفترة. وهو يعود
تدريجياً، سيما منذ انقلاب ميزان القوى في
حرب الخليج.

والثاني هو قرار الملك حسين قطع
الاتصال القانوني بالخطبة الغربية وعزلة،
ذلك ان دمشق أصبحت أمام خيارين
احدهما من إماماً ان يساير العاهل الأردني،
وثوبه، فتقبل بالتالي بصعود نجم القيادة
الحالية للمنظمة التحرير كعميل وحيد
للفلسطينيين في المفاوضات التي هي اتية لا
ريب في الأشهر المقبلة. وترضى بالتالي
بدور الريفي، ولو القوي، في مسألة النزاع
العربي - الاسرائيلي، وإما ان تدفع الأردن،
او تحاول دفعه، نحو إعادة لعب دور
أساسي في النزاع، فتبني المياه تعود الي
مجري العلاقات الأردنية - الفلسطينية على
أرض ليست هي الأرض السياسية التي
تتمناها دمشق لإنهاء النزاع.

والحدث الثالث هو الفراغ الدستوري في
لبنان. هنا أيضاً ترى دمشق نفسها أمام
خيارين صعبين. الأول هو الإنخراط في
العملية الانتخابية بما يؤمن حصولها.
ولكن هذا يعني، ان تتخلى دمشق عن
مطامحها القومية، إن في ما يتعلق باسماء
المرشحين للرئاسة او بما هو مطلوب من
الرئيس المقبل على مستوى الإصلاحات
الداخلية والعلاقات الثنائية. أما الخيار
الأخر، فهو التمسك بهذه المطالب (او
المطامح) القومية، بما يمنع عودة الحياة
الي المؤسسات القائمة ويعني عملياً إحداث
فراغ دستوري، وانفتاح سياسي. أممي قد
تستفيد منه غير قوة إقليمية للتسرب
مجدداً نحو لبنان ولواجهة النفوذ السوري.
نرى إذن ان المجالات الثلاثة الأساسية
التي حاولت سورية (وتحاول) ان يكون لها
فيها دور أساسي، هي مجالات تجد دمشق
نفسها ازماءها في موقف فظاير محسوس
وجوهه دفاعي، فالحزب الخليجي
والصراع العربي - الاسرائيلي والأزمة
اللبنانية هي التي جعلت من سورية اللاعب
والفاعل والمؤثر الذي تحدث عنه بإسهاب
سئول ومعوز. وهي المجالات التي تدعوها
اليوم لاعادة النظر في خياراتها وسياساتها
وصلب مقننتها على الثأثير.

وقد ظهر هذا الحرج السوري في لقائين
محتاليين. الأول كان قمة عمان العربية،

تصدر بعد ايام، وبعد طول التظلم،
سيرة الرئيس حافظ الأسد، كتبها الصحافي
البريطاني المخلص، باتريك سيل. استناداً الي
سئول من المعلومات والأخبار. تنشر للمرة
الأولى. والذين تستلني لهم الاطلاع على
المجلد، اعجبوا بهذه النضارة في المعلومات،
ولو صعب عليهم اتباع الكاتب دائماً في
تفسيره للحديث، الذي يجنح أحياناً نحو
التحيز، لا التفسير. ويأتي هذا المجلد
ليتلقي مع سيرة أخرى، كتبها المؤرخ
الاسرائيلي موشى معوز، ونشرت في دار
اينفولد ونيكولسون، ومعوز، الذي كتب عن
سورية الكثير، يعود لقد اقل بكثير من
المصادر الأولية، ولكنه مفيد في اعطائه
ظلمة اسرائيلية متفحصة لشخصية الأسد
ولسياساته. ويلتقي الكاتبان، ويلتقي معهما
أي مراقب صادق، على الاعجاب بشخصية
الرئيس الأسد القذة، بل الاستثنائية. على
غير صعيد، كما يلتقي الجميع على الأمانة
بالتطور الهائل الذي شهدته سورية في
وزنها على الساحة الاقليمية. فشتان بين
الكاتبين اللذين اصدرهما باتريك سيل بفارق
ربع قرن، كان كتابه الأول بعنوان، الصراع
على سورية، وهو مجلد نشر في الستينات
تناول فيه الكاتب المؤامرات المحسكة في
القاهرة وبغداد، وبيروت وعمان، بهدف
السيطرة على هذا المجال المفتوح للتدخل
والثامر الذي كان اسمه سورية. بينما يركز
الكتاب الجديد، على العكس تماماً، على
تحول سورية من ساحة للنفاس العربي
والاقليمي الي لاعب قوي ذي فاعل في
اللعبة الاقليمية. لكن كتابي سيل ومعوز،
يصدران في وقت يبدو دقيقاً في تاريخ
سورية المعاصر، فسورية في خريف ١٩٨٨
في حالة من انعدام الوزن، بمعنى انه
يصعب على السوريين، وعلى الآخرين
ايضاً، التقدير الدقيق لوزن سورية الآن في
اللعبة الاقليمية، ولا ريب انه سيقتضي
بعض الوقت قبل ان يتمكن المراقبون مجدداً
من تحديد مدى التأثير السوري على ما
يجري في المنطقة. ذلك ان أحداثاً جاءت
لتحمل المراقب على إعادة النظر بالمحاسب
الكبيرة التي جنتها سورية في السنوات
الاخيرة. ومن الخطأ طبيعياً ان ينتقل المرء من
الحد الأدنى في التقدير الي حده الأقصى او
العكس، فيقول بالأمس ان سورية هي
«بروسيا العرب»، ويجزم اليوم بانتهاه
نفوذها فالمرحلة الحالية مرحلة ترقب لما
ستؤول اليه الأحداث، وبالتحديد ثلاثة منها.
الأول هو وقف النار على جبهة الخليج،
وهو امر يبدو انه فاجأ القيادة السورية، ولا
ريب حملها على إعادة النظر في ضوء رغبة
العراق (وقدرته فعلاً) على العودة لاسماع
صوته في الساحة العربية. والذين يبالغون
في تقدير أهمية عودة العراق، مخطئون،
لكن الذين يتجاهلون هذا العنصر مخطئون

والتي اجتمع فيها العرب عملياً لتأييد
موقف العراق ودول الخليج المتخسرة من
النشاط الايراني السياسي والعسكري، ولو
مع بعض التحفظات الضرورية في المقررات
الختامية. وجاءت بعد حين قمة عربية في
الجزائر لتعطي منظلة التحرير الفلسطينية
نفساً جديداً أمنتها لها انتفاضة الشعب
الفلسطيني في الأراضي المحتلة. وبفارق
نصف سنة اجتمع القادة العرب مرتين
ليتخذوا مقررات كانت دمشق تغضك على
الأرجح ألا تتخذ، سيما وان قمة الجزائر
على ما يبدو، لم تجسد لدول المواجهة
الالتزامات المالية التي كانت قمة بغداد قد
قررتها عام ١٩٧٨ لفترة عشر سنين.

وهذا الامر هام للغاية في سورية، وهي
تتحمل عيه نفقات عسكرية طائلة، فالوضع
الاقتصادي والمالي لا يبدو جيداً، والانتاج
النقدي بدأ مرحلة ميوط مماثل في سعر
البرصول. والنتائج الداخلي السوري يسجل
نوعاً ضئيلاً بل سلبياً منذ عام ١٩٨٤. بينما
ميزان الحسابات الجارية انتقل من فائض
٣٠٠ مليون دولار عام ١٩٨٠ الي عجز ٨٠٠
مليون دولار عام ١٩٨٧. وتشهد سورية
ارتفاعاً سريعاً في اسعار السلع الضرورية
وصل الي نسبة ٥٠ في المائة في العام
الماضي. اذف الي ذلك نسبة ارتفاع هدد
السكان وهي من الأعلى في العالم (٣٠٥ في
المائة في السنة) مع ما يعنيه ذلك من اعباء
جديدة هائلة في مجالات الإسكان والصحة
والتعليم. لكل هذه الأسباب، تبدو سورية
اليوم في حال من انعدام الوزن. فهي
استطاعت، كما اسهب سيل ومعوز في
وصفهما، تحقيق انجازات هائلة في مجال
الاستقرار الداخلي، وثنية الجدران
العسكرية، وتطوير النفوذ الخارجي. لكنها
تبني اليوم على مفترق طرق خطير.

يخطيء طبيعياً من يعتقد ان هذه
التحديات الهائلة التي تواجهها سورية
ستعود بها حثعاً الي ما كانت عليه لعهد او
لعقدين خلتا من القدرات المحدودة والتأثير
الضئيل لكنه يبدو ايضاً انه على سورية ان
تسارع لاتخاذ قرارات أساسية طال
انتظارها، على الصعيدين الداخلي
والخارجي. تسمح لها بالتأقلم مع واقع
جديد من الصعوبات الاقتصادية والتحديات
الاقليمية. وقد تكون مشاركة الرئيس الأسد
في القمتين العربيتين الأخيرتين تعبيراً عن
بدايات التأقلم مع سياسة أكثر - وسطية، في
الساحة الاقليمية. وان كان هذا الخيار
الوسطي، صحيحاً فإن اعداداً كبيرة من
اللبنانيين والفلسطينيين والعرب الآخرين
تتنظر حالياً ترجمته في الشؤون التي
تمسها عن قرب.

*استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس
الأولى، ومعهد العلوم السياسية في باريس.